تحليل الخطاب النبوي «أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار» ـ مقاربة تداولية ـ

TheAnalysis of the Prophetic Discourse "Tell me about an action that will bring me to Heaven and keep me away from Hell." - A Pragmatic approach -

فريـــــــد عـــــــــوف*
جامعة محمد الصديق بن يحي بجيجل (الجزائر)
aouffarid@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2020/09/27 تاريخ القبول: 2020/11/23 تاريخ النّشر: 2020/12/01

ملخّـــص

تعتبر التداولية منهجا نقديا، ظهر في مرحلة ما بعد الحداثة، يحاول فهم النصوص الأدبية بالرجوع إلي سلطة السياق أو المقام لمعرفة مقاصد المتكلمتن، ويعكف على دراسة اللغة من حيث الاستعمال. وهذه الدراسة تطبيق لآليات هذه المقاربة النقدية على الخطاب الديني (الحديث النبوي الشريف) للولوج إلي مدارج المعنى ومعارج الدلالة، ومعرفة ما تحمله الكلمات في الحديث النبوي من قيم تداولية في ذاتها وفي بنائها و تعالقها في مجموع الخطاب الديني، فالكلمات ليست مجرّد أمارات مختلفة عن الواقع، بل لها وزنها الخاص وقيمتها الخاصة على حدّ قول رومان ياكبسون.

الكلمات المفتاحية: تداولية ؛ حديث؛ نبوي ؛ نقد ؛ خطاب ؛ تحليل.

Abstract

Pragmatic is a critical approach that emerged in the postmodern period that attempts to understand literary texts by referring to the authority of the context or place to know the intentions of the speakers, and works on studying language in terms of usage. This study is an application of the mechanisms of this critical approach to the religious discourse (the noble Prophet's hadith) to gain access to the meanings of meaning and points of significance, and to know what the words carry in the Prophet's hadith of pragmatic values in themselves and in their construction and relevance in the total religious discourse. Words are not just signs different from reality.

Keywords: Pragmatic; Modern; Prophetic; Cash; Speech; analyzing.

* المؤلّف المرسِل

مقدمـــــــة:

تعدّ المقاربة التداولية نظرية نقدية تدرس النصوص أو الخطاب الأدبي في علاقته بالسياق التواصلي مـــن حيث الوظيفة، وبذلك تكون قد تجاوزت سؤال البنية والدلالة، لتهتمّ بسؤال الوظيفة والرسالة والسياق الوظيفي.

والناظر في مباحث أفعال الكلام ، ونظريات الحجاج، ومباحث الملفوظية وغيرها، يُدرك ما يحمله هذا الدرس التداولي الجديد من وسائل كامنة، قادرة على أن تُلامس في اللغة –في مختلف أداءاتها- ما لم تُلامسه المناهج الأخرى.

وكانت هذه الورقة البحثية إسقاطا لهذه المقاربة التداولية على الخطاب الديني بتناول نموذج من ا لأحاديث النبوية الشريفة وقيمه التداولية ووظائف اللغة والفعال الكلامية وأساليب الحجاج التي استعان بها الرسول صلى الله عليه وسلم للإقناع والتأثير على المتلقين، وتشمل الدراسة على تداولية التركيب النحوي، والبلاغي، والحجاج وأفعال الكلام في الخطاب النبوي.

يتأسس هذا البحث على الإجابة عن إشكالية مهمّة وهي: إلى أيّ حدّ يمكن الكشف عن البُعد التداولي في الخطاب النبوي؟ وماهي الآليات التداولية التي استعملها الرسول صلى الله عليه وسلم في البليغ، وتحويل أقواله إلى أفعال إنجازية؟

ومن الفرضيات التي يسعى الباحث إلى الإجابة عن أحدهما:

• إنّ الحديث النبوي خطاب ديني وظيفته دينية وهي الوعظ والإرشاد.

• إنّ الحديث النبوي له أبعاد تداولية لا تقتصر على الوعظ بل حمل المتلقين على الفعل بأساليب الترغيب والترهيب.

أمّا منهجية الدراسة فقد اعتمدتُ على إجراءات المقاربة التداولية بداية بتداولية التركيب النحوي، والبلاغي، وأفعال الكلام، والحجاج في الخطاب النبوي. وتزداد أهمية هذا المنهج الذي يستجيب طواعية لتحليل الخطاب الديني، لأنّ الأفعال الكلامية التي وظّفها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مـــن إخبارية وإنجازية، الغاية منها هي حمل المتلقين (المسلمين) على العمل بها لنيل الجنة والابتعاد عن النار.

ويكتسي البحث أهمية كبرى كونه دراسة تطبيقية للخطاب الديني (الحديث النبوي) بآليات حديثة (المقاربة التداولية)، على الرغـــم من أنّ الباحثين قد طرقوا باب هذا الموضوع، لكن كان تركيزهم على نظرية أفعال الكلام، نذكر منهم الباحثة الجزائرية نعيمة طهراوي في مقال لها بعنوان «تداولية أفعال الكلام في الحديث النبوي

الشريف»[1] لكن هذه الدراسة أشمل كونها تناولت - إضافة إلى أفعال الكلام- تداولية التركيب النحوي والبلاغي، والحجاج.

1. التداولية، مفهوما ووظيفة:

1.1 التداولية، المفهوم والمصطلح والمرجعيات:

التداولية أحدث اتجاه نقدي معاصر، ظهر في مرحلة ما بعد البنيوية خلال القرن التاسع عشر، وانبثق عن السيميائية، لكن الفارق أنّ السيميائية تبحث عن الدوال ومدلولاتها، في حين تبحث التداولية في استعمالات الدوال، وما تدرّه من نفع على أرض الواقع.

لقد جاءت التداولية ضد الفلسفة النظرية*[2]، وهي «لفظ مشتق من نفس الكلمة اليونانيةpragmatikos» بمعنى «العمل التي تُؤخذ منها كلمتا (مزاولة) و(عملي).»[3] وفي المقابل العربي تُرجم المصطلح بكيفيات متعددة كـ«التبادلية والاتّصالية والنفعية إلى جانب الذرائعية»[4]، واقتـــــرح عبد الملك مرتاض مصطلح (التداول)[5]، وطه عبد الرحمن (التداوليات) أو (المجال التداولي).[6]

وكان لتأثير الفلسفة البراغماتية لوليام جيمس وجون ديوي أعظم الأثر في ميلاد التداولية التي صارت علما يتناول اللغة من الزاوية النفعية لا من حيث بنيتها اللغوية، «وهي علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال.»[7]

وكان أول من أدخل اللفظ في الفلسفة تشارل بيرس في سنة 1878م. ففي مقال بعنوان (كيف نجعل أفكارنا واضحة)...ذكر بيرس- بعد أن أشار إلى أنّ عقائدنا هي في الواقع قواعد للعمل والأداء- أننا لكي ننشئ معنى فكرة، فكلّ ما نحتاج إليه فقط هو تحديد أي سلوك تصلح لإنتاجه: إنّ المسلك بالنسبة لنا هو مغزاها الوحيد الذي يعوّل عليه، وإنّ الحقيقة المملوسة البيّنة التي هي المنشأ الأصلي الجذري لكلّ تفرقاتنا بين الأفكار، مهما تكن خفية ومستورة.[8]

وانتقلت التداولية من الحقل الفلسفي، وبنت دعائم عرشها في اللسانيات حيث «عدّت فرعا من فروع علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم أو دراسة معنى التكلّم، فقول القائل أنا عطشان مثلا قد يعني أحضر لي كوبا من الماء، وليس من اللازم أن يكون إخبارا بأنّه عطشان فالمتكلّم كثيرا ما يعني أكثر ممّا تقوله كلماته.»[9]، ولهذا قيل بأنّ «التداولية محاولة للإجابة عن أسئلة كالتالي: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط، حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة بأن يمدّنا بكذا، بينما يظهر واضحا أنّ في إمكانه ذلك؟ فمن يتكلّم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ من

يتكلّم ومع من؟ من يتكلّم ولأجل من ؟ ...كيف يمكننا قول شيء آخر، غير ما كنّا نريد قوله؟.»[10]

2.1 مجالات الدرس التداولي:

وتشترك التداولية مع حقول معرفية أخرى كعلم الدلالة وعلم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي وتحليل الخطاب. أمّا مجالات بحثها فقد تناولها بالتفصيل محمود أحمد نخلة في كتابه (آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر)، ويتمثل في دراسة أربعة جوانب هي: الإشارة، والافتراض السابق، والاستلزام الحواري، والأفعال الكلامية.»[11]

أ/الإشارة: لكلّ لغة إشارات تعتمد اعتمادا كليّا على السياق، فمنها الإشارات الشخصية بالضمائر كقولنا: «(سوف يقومون بهذا العمل غدا، لأنّهم ليسوا هنا الآن). فهذه الجملة في حاجة لتفسيرها من رجوع إلى سياقها المادي الذي قيلت فيه لمعرفة هوية الضمير (هم). ومنها الإشاريات الزمانية والمكانية والاجتماعية، وإشاريات الخطاب.[12] وقد تتداخل في الخطاب، ولتحديد دلالتها يقتضي الأمر العودة إلى السياق.

ب/الافتراض السابق: وينطلق من مفهوم مؤداه أنّ المتكلم يوجه حديثه إلى سامع معلوم له سلفا، فإذا قال رجل لآخر: (أغلق النافذة). فالمفترض سلفا أنّ النافذة مفتوحة، وأنّ هناك مبررا لإغلاقها...وكلّ ذلك موصول بسياق الحال.[13]

ج/الاستلزام الحواري: وهو من أهم الجوانب في الدرس التدوالي، ترجع نشأته إلى أحد فلاسفة أوكسفورد وهو جرايس من خلال محاضراته : المنطق والحوار التي ألقاها في جامعة هارفارد سنة 1967م. وضع فيها حلاّ لإشكال بين المتكلم والمخاطب حين يسمع شيئا ويفهم شيئا آخر. وهذا الحلّ هو مبدأ التعاون بينهما، وهو مبدأ حواري علم يشتمل على أربعة مبادئ هي: الكم، الكيف، المناسبة، الطريقة. ومن هذا التعاون الحواري قولنا: أين مفاتيح السيارة؟ /على المائدة.[14]

د/الأفعال الكلامية: وهي تستأثر اهتمام الباحثين في جوانب النظرية العامة لاستعمال اللغة، وكانت التداولية في نشأتها الأولى مرادفة للأفعال الكلامية، وكان جون أوستن، ورسل وفتجشتاين يسعون لإيجاد لغة مثالية تتجنب عيوب اللغة العادية.

فوظيفة اللغة عند فتجنشتاين لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها، ولكن للغة وظائف عديدة كالأمر والاستفهـــــــام والتمني، والشكر والتهنئة واللعن والقسم والتحذير.[15] وهذا ما كان محلّ اهتمام البلاغيين في باب علم المعاني.

وقد ميّز أوستن بين نوعين من الأفعال هما:

أ. أفعال إخبارية: وهي تصف وقائع العالم الخارجي وتكون صادقة أو كاذبة.[16] وهذا ما يتوافق مع تعريف البلاغيين للخبر بأنّه كلام يحتمل الصدق أو الكذب.

ب. أفعال أدائية: و تنجز في ظروف ملائمة أفعال أو تُؤدى، ولا تُوصف بصدق أو كذب، ونجدها في مجال الوصية والاعتذار، والنصح والوعد.[17] وقد اصطلح البلاغيون على تسميته قديما بالأسلوب الإنشائي الذي عرّفوه بأنّه كلام لا يحتمل الصدق ولا الكذب.

وقسّم أوستن الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام هي: الفعل اللفظي، والانجازي، والتأثيري:[18]

أ. الفعل اللفظي: وهي أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي.

ب. الفعل الإنجازي: وهو ما يؤديه الفعـــــــل اللفظي من معنى خلف المعنى الأصلي.

ج. الفعل التأثيري: ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع كأفعال الأحكام، والقرارات والتعهد والسلوك والايضاح.

وجاء سيرل (J.Searle) الذي طوّر نظرية الأ فعـــــال الكلامية، وأضاف إلى جهود أوستن إضافات جليلة، حيث وضع أربعة شروط للملاءمة هي:[19]

1. شروط المحتوى القضوي: وهو الذي يقتضي فعل في المستقبل يطلب من المخاطب، كفعل الوعد.

2. شرط التمهيدي: ويتحقق الشرط إذا كان المخاطب قادرًا على انجاز الفعل، والمتكلم على يقين بالقدرة.

3. شرط الإخلاص: ويتحقق حين يكون المتكلم مخلصًا في أداء الفعل فلا يقول غير ما يقصد ولا يزعم أنه

قادر على فعل ما لا يستطيع.

4. شرط الأساسي: ويتحقق من خلال محاولة المتكلم التأثير في السامع للقيام بالفعل وانجازه حقًا.

وقسّم أفعال الكلام إلى خمسة أصنـــــــاف: مباشرة وغير مباشرة يمكن أن نوجزها فيما يلي:

أ. الأفعال المباشرة:

بنى سيرل نظريته في الأفعال الكلامية على مبدأ فلاسفة اللّغة العادية القائل «بأنّ القول هو العمل.»[20]، لأنّ القول باعتباره شكلاً من السلوك الاجتماعي، وهذا يعني انجاز أربعة أفعال في الوقت نفسه وهي: فعل القول، فعل الإسناد، فعل الإنشاء،

فعل التأثير. فأمّا القول فهو الذي يتمثل في التلفظ بكلمات وجمل ذات بنى تركيبية صرفية ونحوية، أمّا فعل الإسناد فهو الذي يقوم بربط صلة بين المرسل والمرسل إليه، وأمّا فعل الإنشاء فهو القصد المعبّر عنه في القول الذي قد يكون تحذيرًا، أو ووعدًا، أو تهديدا، أو أمرًا ، وأمّا الفعل التأثيري فيمكن في محاولة المتكلم التأثير على السامع ولكن دون أن ننسى دور المستمع الذي يريد الوصول إلى مقاصد المتكلم باعتماده على جميع العناصر المفصلية للتواصل.[21]

فالفعل المباشر عند سيرل هي الأقوال التي تتوفر على تطابق بين معنى الجملة ومعنى القول، أو تطابق المعنى والقصد.

ب. الأفعال غير المباشرة:

وفيها ينتقل المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي، وهي أفعال تحتاج إلى التأويل لإظهار قصدها الإنجازي كالاستعارة والكناية «إذ تجير المستمع من الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى الذي يسنده المتكلم في قوله.»[22] وهذه الأفعال هي:[23]

1. لإخباريات: الغرض الإنجازي فيما وصف المتكلّم واقعة معينة من خلال قضية، وأفعال هذا الصنف تتحمل الصدق أو الكذب، أمّا اتجاه المقابلة فيكون من الكلمات إلى العالم.

2. التوجيهات: وتمثل الغرض الإنجازي فيها في محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء معين والأساس الثاني يكمن في الانتقال من العالم إلى الكلمات، كالنصح والأمر والاستعطاف...

3. الالتزامات: غرضها الإنجازي هو التعبير عن التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل وأما اتجاه المطابقة فيها فهو الانتقال إلى ذلك من العالم إلى الكلمات.

4. التعبيريات: وغرضها الإنجازي هو: «التعبير عن الموقف النفسي تعبيرًا يتوافر فيه شرط الإخلاص وليس لهذا الصنف باتجاه المطابقة» ويدخل فيه التهنئة والشكر والاعتذار والمساواة.

5. الإعلانيات: أهمّ ما ميزها أن أداءها الناجـــــح يتمثل في مطابقة محتواه القضوي للعالم الخـــــارجي.

وخلاصة القول فإنّ الدرس التداولي الحديث جاء ليُصحح مصار البنيوية التي تقتصر على دراسة اللغة كبنية مغلقة من حيث شكلها ونسقها ونسجها لا كوظيفة وأداء وإنجاز، فالقدامى قالوا في تعريفهم للكلام بأنّه « قول مفيد فائدة يحسن السكون عنه»، وصاحب الألفية قال: «كلامنا لفظ مفيد كاستقم...». فالتداولية تسعى لإيجاد

تلك الفائدة من خلال البحث عن مقاصد المتكلمين في إطار علاقة الكلام بالسياق.

2. تحليل الخطاب النبوي وفق المقاربة التداولية:

1.2 نص الحديث النّبوي الشريف: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْت عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّك عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ -حَتَّى بَلَغَ- يَعْمَلُونَ﴾(سورة السجدة / الآيتان : 16 و17). ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُك بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْت: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُك بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ فقُلْت: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْك هَذَا. قُلْت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْك أُمُّك وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ- أَوْ قَالَ - عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلَّا حَصائدُ ألسِنتهم.»**[24]

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

2.2 تداولية التركيب النحوي في الخطاب النبوي:

لا يختلف اثنان في أنّ التحليل التداولي للتراكيب اللغوية وربطها بالمواقف الاجتماعية والثقافية والنفسية المحيطة بالمتكلّم وبخطابه الذي أنتجه ما هو إلاّ محاولة لاستكشاف مقاصد المتكلمين، فالمخاطب يعيد إنتاج كلام المتكلم، وبخاصة إذا خرج كلامه عن المألوف اللغوي أو العرفي للوصول إلى مقصد إنتاجي يعتقده المخاطب بأنه هو مقصود المتكلم.

فالمتأمل في نظرية النحو العربي -من حيث حكمها على التراكيب، وبيانها لمستويات الأداء: صوابا وخطأ، حسنا وقبحا، تجويزا، ومنعا، قبولا ورفضا، قوة وضعفا، واستقامة وإحالة- يجدُها خاضَعة لضوابط معتبرة نحوا و دلالة، ويكفي أن نستدلّ على صحة هذا الكلام بما أورده سيبويه (ت 188هـ) من أحكام على بعض التراكيب في نصه بعنوان « هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة»، قال فيه: «فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأمّا المستقيم الحسن، فقولك أتيتك أمس، وسآتيك غدا. وأمّا المُحال فأن تنقض أوّل كلامك بآخره، فتقول أتيتك غدا وسآتيك أمس، وأمّا المستقيم الكذب، فقولك: حملتُ الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه. وأمّا المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو

قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيد يأتيك ، وأشباه هذا. وأمّا المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس.»[25] ويتبيّن من هذا القول أنّ سيبويه جعل الدلالة معيارا أساسيا للتمييز بين أنواع الكلام، فالحسن والقبح متصل بمدى استقامة الكلام لبلوغ المعنى إلى ذهن المتكلمين.

وإذا نظرنا إلى التراكيب النحوية في الخطاب النبوي لمسنا فيها الاستقامة والإيجاز والحسن، وقدرتها على التأثير على المتلقين وحملهم على الفعل، «فألفاظ النبوة يعمرها قلب متّصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن منها دليل فقد كانت هي من دليله...وكأنّما هي في اختصارها وإفادتها قلب يتكلّم، وإنّما هي في سموّها وإجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم.»[26]

جاءت التراكيب النحوية في الخطاب النبوي في حوار شيّق، محكمة النسج ، قويّة البناء، أسئلة وأجوبة متتابعة، تدفع السائل إلى العمل لبلوغ الغاية وهي «دخول الجنّة والابتعاد عن النار.» وكانت التراكيـــــب النحوية تهيمن عليها الأفعال الإنجازية ــ وهذا ما سيكون موضع دراسة في نظرية الأفعال الكلامية ــ إلى جانب ظواهر نُحوية تعطي لها البُعد التداولي وهي:

أ. **الحذف:** الحذف ظاهرة نحوية وبلاغية مشحونة بالقيم التداولية ، ولهذا احتلت مركزا مهما في اهتمامات النحو والبلاغة العربيين، يقول عبد القاهر الجرجاني: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فانك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون بيانًا إذا لم تبن.»[27] ويؤكد هذا القول أهمية الحذف؛ فهو يكسب اللغة متانة، والكلام قوة، فتنبهر به النفوس لسحره العجيب، فيأسرها كأنه سحر، ومردُّ ذلك إلى أن ترك الإفصاح هو أبلغ إفصاح، والإشارة تغني عن العبارة؛ بل إن السكوت في بعض الأحيان أبلغ جوابًا وأجمل بيانًا.

وقد تجلّت ظاهرة الحذف في الحديث النبوي الشريف لأغراض بلاغية-تداولية، أراد الرسول صلى الله عليه وسلم من السائل أن يفهم المراد في أوجز تعبير، نذكر من ذلك قوله: «أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار». ومن الواضح أنّ الطلب جاء بصيغة الأمر في هذا التركيب النحوي «أخبرني» والذي وظيفته عند البلاغيين الإلزام أو الالتمـــــــاس، ويظهر البُعد التداولي في هذا التركيب في الحذف الذي طرأ عليه، لأنّ معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ يسأل الرسول ــ صلى الله عليه

وسلم ــ حيث حُذفت أداة الاستفهام «هل»، وكان قصده «هل تخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟». وقد وصلت الرسالة إلى الرسول الكريم بأنّ السائل يسأل ولا يصدر أمرا، لأنّ المقام يحيل إلى ذلك ، لهذا كان جوابه: «لقد سألت عن عظيم»." كما وقع الحذف في قوله: «لقد سألت عن...."اللام واقعة في جواب قسم محذوف، والتقدير: والله لقد سألت عن عظيم، وفي رواية: لقد سألتني، ((عظيمٍ))؛ لأنّ عظم الشيء بعظم الأسباب، والنجاة من النار أمر عظيم، فكيف مع دخول الجنة؟!. ومن الحذف أيضا –حذف همزة استفهام – في قوله: « وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟» والتقدير: «أئنّا لمؤاخذون...؟»

ب. التقديم والتأخير:

للتقديم والتأخير فوائد جمة تعبّر عن مدى سعي العربية إلى تحصيل جمال التعبير والصياغة قبل كل شيء ، بمخالفة الترتيب الذي وضعه الأولون لتراكيبهم، يقول عبد القاهر الجرجاني رحمه الله متحدثا عن فائدته: « هذا باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك ، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكان إلى مكان.»[28]

إنّ العناية بترتيب عناصر الجمل الاسمية أو الفعلية لها قيمة تداولية ، فتقديم المسند على المسند إليه، أو تأخير هما يؤدي إلى تغيير مقاصد الكلام، و تغيّر الدلالة، ولهذا اهتم النحو العربي ــ إلى جانب البلاغة العربية ــ بهذه الظاهرة النحوية التي كان لها حضورا في هذا الحديث النبوي الشريف نذكر منها:

- رأس الأمــر الإسلام.
- عمـــــوده الصلاة.
- ذروة سنامه الجهاد.

ففي هذه التراكيب الاسمية تقدّم المسند على المسند إليه، لأهمية المسند

المسند	المسند إليه
رأس الأمر	الإسلام.
عموده	الصلاة.
ذروة سنامه	الجهاد

فتقديم المسند «رأس الأمر» له بُعد تداولي يتمثل في كون «الإسلام» ركنا أساسيا لا تصح الأعمال دونه، لا الصلاة، ولا الجهاد، لهذا فهو بمثابة الرأس. وقد ورد تفسير هذا في حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله))؛ أي: إنّ رأس الدين الذي بعث به صلى الله عليه وسلم هو الإسلام بأركانه الخمسة جميعًا.

وبعد «الرأس» يتقدم المسند «عموده» دلالة على ما تحتله الصلاة من مكانة إلى حدّ وأن جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم هي الفيصل بين الكفر والإيمان، وعمود الشيء هو أساسه، فعماد البيت أساسه، إذا سقط انهار البيت.

أمّا «ذروة سنامه» فهي المسنـــــــد، وتتمثل في حافة السيف، وهنا إشارة إلى أهمية الجهاد في الإسلام.

ونلاحظ في هذا التقديم والتأخير وظائف تداولية بيّنت أهمية المسند وعلوّ شأنه، فقولنا «الإسلام رأس الأمر» لا يؤدي قيمة تداولية كقولنا: «رأس الأمر الإسلام».

ج. التّكـــــــرار:

والتكرار من محاسن الكلام ، وكان سنّة من سنن العرب في القول*[29]، يقول ابن قتيبة (ت276هـ): «وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرائق القول ومآخذه, ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار...»[30] وعلى هذه الطريقة سار الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه ، فقد أشار أنس بن مالك رضي الله عنه إلى هذا عندما وصف منطق رسول الله عليه وسلم: فقال: «أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ كانَ إذا سلَّمَ سلَّمَ ثلاثًا، وإذا تَكلَّمَ بِكلمةٍ أعادَها ثلاثًا.»[31]

ومن مظاهر التكرار في الحديث النبوي، قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «ألا أخبرك (مرتان)، وبما يقارب معناها (ألا أدلك) (مرة واحدة). ومن الواضح أنّ التكرار هنا مقصود وهادف وهو تشويق الصحابي الجليل ــ رضي الله عنه ــ لمعرفة نفائس الأعمال التي تُدخله الجنة (ألا أدلك على أبواب الخير...ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه....ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه....). إنّ البعد التداولي في هذا التكرار هو حمل نفس المخاطب على التأثّر ثمّ الفعل.

3.2 تداولية التركيب البلاغي في الخطاب النبوي:

1.3.2 تداوليـــــــــة أسلوبي الخبر والإنشاء:

إنّ العلاقة وشيجة بين البحث البلاغي العربي والمفاهيم التداولية المعاصرة،

لارتباطهما باستعمال اللغة، واهتمامهما «بدراسة شروط سلامة الخطاب والتواصل، ومظاهر الإقناعية فيه، حيث يجتهد المتكلم في ضمان اقتناع مخاطبه بموضوع الحديث واستمالته إليه.»[32]

هذا، ويمثّل موضوع الخبر والإنشاء أكبر محـور في الدرسين البلاغي والتداولي من حيث خروجهما إلى أغراض تُفهم حسب المقام،

وقد تعدّدت الأساليب البلاغية في الخطاب النبوي ، وذلك بالتنوّع بين الأسلوبين الخبري والإنشائي، تارة، أو خروج الإنشائي إلى أغراض بلاغية أخرى تُفهم من السياق، أو التعبير بالخبر عن الإنشاء، تلك الظاهرة التي أكسبت الخطاب حمولة من القيم التداولية يمكن توضيحها فيما يلي:

أ. أسلوب الاستفهام: والاستفهام أكثر الأساليب الإنشائية ورودا في الحديث النبوي، لأنّه ينسجم مع الحـــــوار بين الصحابي والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهي أسئلة ــ وإن كان الغرض منها طلب الجواب ومعرفة حائق يجهلها الصحابي معاذ بن جبل رضي الله عنه ــ فإنّ بعضها لها مقاصد وأبعاد تداولية كالتشويق نحو قوله «ألا أدلّك على أبواب الخير؟»، والتعجّب نحو قوله: «وإنّ لمؤاخذون بما نتكلّم به؟.»

ب. النداء: يعدّ النداء من الأدوات الإنجازية التي تسهم في تحقيق مقصد العبارة نحو قوله : « يا رسول الله»، «يا نبيّ الله.»

ت. خروج الخبر عن الغرض الذي وُضع له: كالأمر والطلب بواسطة الخبر: وهي ظاهرة بارزة في الخطاب النبوي، حيث يخرج الخبر عن غرضه البلاغي وهو التقرير والإخبار إلى النصح والإرشاد والتوجيه، نحو قوله: « تَعْبُدُ اللَّهَ...، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ»، والتقدير «اعبدوا الله ، أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، صوموا رمضان، وحجوا بيت الله الحرام...» وقوله «الصوم جنة»، و»الصدقة تطفئ الخطيئة»، والتقدير «عليكم بالصوم ...» «عليكم بالصدقة....». هذا إلى جانب الطلب بفعل الأمر «كفَّ عليك هذا» . والنهي» لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا.»

2.3.2 تداوليـــــة التشبيه، والتعبير الاستعاري والكنائي:

تعتبر الألوان البيانية من الأدوات التي تكسب التركيب بُعدا تداوليا أو ما سماه عبد القاهر الجرجاني «معنى المعنى»، وهذا لا يعني بأنّ التداولية هي نفسها معنى المعنى، ولكن تقترب منها ، «لأنّ المتكلّم يعدل عن التعبير الحقيقي المباشر إلى الحديث بصور بلاغية تجعل من السامع مهتمّا بالخطاب في ذاته قبل أن يقف على المقصود منه، وفي ذلك حرص من المتكلم على تنبيه مخاطبه لاستغلال اللغة ذاتها للوصول إلى

مقصوده ودواعيها.»[33]

وقد تعدّد استخدام الصور البيانية في الخطاب النبوي ، وهذا ما جعله يعجّ بالقيم التداولية، ويأتي التركيب التشبيهي في مقدمة هذه الصور التي بها يحرص المتكلم على تقديم المعنى واضحا عن طريق التصوير والإقناع الحسي، وخير مثال على ذلك قوله: «**وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ**»، فقد جاء ت عناصر التشبيه مكتملة إغراقا في الإيضاح فكما أنّ الصدقة تمحو الخطايا فإن الماء يطفئ النار، ومن التشبيه الذي حُذف طرفيه (الأداة ووجه الشبه) ــ وهو التشبيه البليغ ــ قوله: «**أَلَا أَدُلُّك عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟**» وقوله أيضا: «**قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ**،» فقد سوّى بين المشبه والمشبه به، وجعل القارئ يتشوق لمعرفة أبواب الخير، و يدرك الأركان الأساسية التي بُني عليها الدين، وهي الإسلام، ثم الصلاة، والجهاد في سبيل الله.

وإذا كانت قيمة التشبيه التداولية هي التصوير والإقناع الحسي، فإنّ تداولية التركيب الاستعاري هي التشخيص للمعنى وتجسيده في قالب محسوس، وتزداد قيمتها التداولية في خروج اللفظ المستعمل عن المألوف على سبيل المجاز لا الحقيقة، وهو المعروف بالانزياح ، وقد كان للحديث النبوي نصيب من الاستعارة نذكر منها «**الصدقة تطفئ الخطيئة**». فالقارئ يتوهم بعد سماعه لكلمة «الصدقة» أن يليها «تمحو الخطيئة»، وإذا به يخيب انتظاره، حيث يجد الفعل «تطفئ»، وكأنّ الصدقة ماء، والخطايا نار. ومن التركيب الاستعاري أيضا «**إِلَّا حَصائدُ ألسِنتهم**»، والحصائد جمع من الحصاد، وهو لفظ شائع في مجال الزراعة، حيث موسم الحصاد للحبوب ، غير أنّ الحصائد في هذا الحديث قد خرجت عن المألوف، حيث أُسندت إلى الألسنة، ومعنى هذا أنّ حصائد الألسنة هو كلّ ما يجنيه الإنسان من أقواله (خير أو شرّ).

أمّا الكناية، فهي من أكثر الألوان البيانية تعبيرا عن قيم تداولية، لأنّها تقوم على التلميح للمخاطب بواسطة اللغة لا التصريح، وهي «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيوميء إليه، ويجعله دليلا عليه.»[34] وقد ورد التركيب الكنائي في الحديث النبوي الشريف في قول الرسول الكريم ــ صلى الله عليه وسلّم ــ : «**وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْك هَذَا**»، فهذا التركيب يضعنا أمام دلالات محتملة، فنعود إلى السياق اللغوي الذي قبله «**فأمسك بلسانه**»، وعندئذ ندرك أنّ المتحدث عنه هو الموصوف أي اللسان، فالتركيب النحوي الصريح هو «كف عليك لسانك.»

4.2 نظرية أفعال الكلام في الخطاب النبوي:

نظرية الأفعال الكلامية هي من أهمّ آليات المقاربة التداولية التي تقوم على مقولة أنّ «كلّ قول فعل». وقد تعدّدت هذه الأفعال في الخطاب النبوي حرصا من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ على إرشاد الناس وتوجيههم إلى الطريق الصحيح. وقد تنوّعت هذه الأفعال ــ حسب نموذج سيرل ــ إلى أفعال مباشرة، وغير مباشرة، نوجزها فيما يلي:

أ. الأفعال المباشرة: وهي انجاز أربعة أفعال في الوقت نفسه، تتمثّل في : فعل القول، فعل الإسناد، فعل الإنشاء، فعل التأثير.

1. أفعال القول: وهي التلفظ بكلمات وجمل ذات بنى تركيبية صرفية ونحوية، نحو قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ «الصوم جنة، الصدقة تطفئ الخطيئة، لقد سألت عن عظيم.»

2. أفعال الإسناد: وهي التي تقوم على ربط الصلة بين المرسل والمرسل إليه، فالمرسل هو الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ (المخاطب –بكسر الطاء)، أمّا المرسل إليه (المخاطب – بفتح الطاء) فهو الصحابي الجليل ــ معاذ بن جبل رضي الله عنه ــ . وتؤدي الضمائر دورها في التماسك النصي، وتعزيز العلاقة بين طرفي الحوار: المتحاور: المخاطب (المرسل) «سألتَ، أدلك، أخبرك...»، والمتحاور معه: المرسل إليه (المخاطب): «أخبرني، يدخلني، يباعدني.»

3. أفعال الإنشاء: وهي المعروفة في البلاغة العربية بالأساليب الإنشائية، وقد تكون تحذيرًا، أو ووعدًا، أو تهديدا، أو أمرًا. وقد تنوّعت أفعال الإنشاء في الخطاب النبوي منها الأمر للنصح مثل «كف»، والنداء: « يا رسول الله»، «يا نبيّ الله». والاستفهام للتشويق نحو قوله «ألا أدلّك على أبواب الخير؟، والاستفهام غرضه التعجّب نحو قوله: «وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟.

4. أفعال التأثير: وهي محاولة المتكلم التأثير على السامع، فالرسول صلى الله عليه وسلم يردّ على أسئلة الصحابي الجليل ساعيا إلى التأثير عليه بأساليب الترغيب تارة «تعبد الله، تصوم رمضان، تؤتي الزكاة، وتحج بيت الله...»، والترهيب تارة أخرى نحو قوله: «**فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْك هَذَا. قُلْت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَ إنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْك أُمُّك وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ- أَوْ قَالَ - عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلَّا حَصائدُ ألسِنتهم.**»

ب. الأفعال غير المباشرة:

1. الإخباريات: وهي تبليغ خبرا، وتمثيل للواقع، وتسمى أيضا بالتأكيدات، و يكون الغرض الإنجازي منها نقل الأخبار، وتبليغ الدعوة، ووصف الحوادث نحو قوله: «عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلتُ..»، وعرض المواقف، وتقرير الحقائق نحو قوله: «الصوم جنة»، «الصدقة تطفئ الخطيئة»، والتأكيد نحو قوله: «لقد سألت عن عظيم. وإنّه ليسير.» وأفعال هذا الصنف تحتمل الصدق أو الكذب، وإن كانت الأخبار في الخطاب النبوي لا مجال للشكّ فيها أو التكذيب فهي شرح للطريق الذي يجب أن يسلكه كلّ مسلم للظفر بالجنة، والابتعاد عن النار .

2. التوجيهات: والغرض الإنجازي فيها هو محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء عن طريق النصح والأمر والتحذير ، فمن النصح: « تعبد الله، تقيم الصلاة، تؤتي الزكاة، تصوم رمضان، وتحجّ البيت»، ومن التحذير: «لا تشرك به شيئا»، والأمر «كف عليك هذا.»

3. الالتزامات أو الوعديات: غرضها الإنجازي هو التعبير عن التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل، ومثال في الحديث النبوي الشريف، ما جاء على لسان معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ في جوابه بالإثبات «بلى يا رسول الله»، وهو ضرب من الالتزام والوعد بالعمل بما قدّمه الرسول صلى الله عليه وسلم من توجيهات له.

4. التعبيريات: وغرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي تعبيرًا يتوافر فيه شرط الإخلاص.

ومن الواضح في الحديث النبوي أنّ شرط النية والإخلاص، وحبّ النبيّ الكريم جليّ وواضح من خلال الأسئلة المتتابعة التي يعبّر فيها الصحابي الجليل عن قوة إيمانه، وحرصه على معرفة الطريق الذي يسلكه لبلوغ الجنّة، ويباعده عن النار (أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار) (قلت يا نبيّ الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟).

5. الإعلانيات: الإيقاعيات أو الإعلانيات هي الأفعال التي ينشأ بمجرد التصريح بها إحداث تغيير في الوضع القائم. فالمتكلم في الحديث النبوي الشريف، هو الرسول صلى الله عليه وسلّم الذي يستمدّ قوته من سلطة الخطاب الإلهي، غايته هي نقل المسلمين من واقع إلى واقع جديد، وهو:

- العمل بأركان الإسلام الخمسة في قوله: «**تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ.**»

- الالتزام بأركان الدين: وهي الإسلام والصلاة والجهاد «قَالَ: **رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ،**

وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ.»

- أداء النوافل: وهي صيام التطوع، الصدقة، وقيام الليل «**الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ.**»

- حفظ اللسان، والابتعاد عن أذى المسلمين في أعراضهم: «**وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْك هَذَا. قُلْت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَ إنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْك أُمُّك وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ- أَوْ قَالَ - عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلَّا حَصائدُ ألسِنتهم.**»

5.2 الحجاج في الخطاب النبوي:

لقد عرف الفكر البشري الحجاج منذ القدم، وشاع في الدراسات الفلسفية والبلاغية والنقدية والعلمية والأدبية والدينية، لحاجتها إلى البرهان والدليل والحجّة، لإثبات مواقفها، والدفاع عن آرائها، وإقناع الغير بها، فهو كما عرّفه طه عبد الرحمن: «كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها.»[35]

ولمّا كانت غاية الحديث النبوي هي ترغيب المسلمين بأفعال الخير للعمل بها، وترهيبهم بأفعال الشر للابتعاد عنها، وحمل النفوس على ترجمة ما يقوله أو يسديه لهم من نصح إلى أفعال وسلوكات تظهر آثارها في واقع حياتهم، ومن هنا كان الحجاج من الأدوات التي استعان بها الرسول صلى الله عليه وسلم للإقناع في أحاديثه الشريفة.

وإذا تقصّينا هذا الحديث النبوي الشريف لمسنا فيه كثيرا من الحجج اعتمد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم في ردّه على أسئلة الصحابي الجليل معاذ بن جبل- رضي الله عنه- وهي:

أ. أسلوب التوكيد والقسم: وجاء القسم في مطلع الحديث النبوي الشريف ليبيّن الرسول الكريم أهمية السؤال الذي طرحه معاذ، ويلفتُ انتباه السامعين له، في قوله: «لقد سألت عن عظيم». وقد حذف القسم (والله) وأبقى جوابه «لقد سألت». كما كثرت مؤكدات الخبر (لقد سألت، وإنّه ليسير، وإنّا لمؤاخذون). وبأسلو ب القصر بـ«إلاّ» في قوله: إلاّ حصائد ألسنتهم.»

ب. الاقتباس: وهي ظاهرة بارزة في الحديث النبوي باعتبار هذا الأخير يأتي تأكيدا أو تفسيرا لما جاء في القرآن الكريم، ونذكر من ذلك استدلاله بقوله تعالى: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ (السجدة 17-16).

ج. التكرار: والتكرار من آليات الحجاج لترسيخ النصيحة في النفوس، وحملها على

العمل بها، نذكر منها : (ألا أدلك على أبواب الخير...ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه...ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه...). وقوله: «قُلْت: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ ... ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُك بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ فقُلْت: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْك هَذَا». وهو تأكيد على الإنصات والوعد بالعمل بما بأقواله ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

د. الحوار: الحوار من أدوات التبليغ، ويتجلى بُعده التداولي في كونه يتوخى ترجمة القرارات على أرض الواقع، وهو على حدّ قول الشاطبي: « مقصود الكلام ليس هو نفس التعقل، بل الانقياد إلى الأفعال، وتقويم السلوك.»[36]

والحوار هو من أدوات الحجاج في الخطاب النبوي، يستعين به الرسول صلى الله عليه وسلم لتفسير تعاليم الإسلام، وشرحها بطريقة مبسطة ليفهمها الجميع، وإقناع المتلقي، (ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة... ألا أخبرك برأس الأمر وعمودها وذروة سنامه؟...).

3. الخاتمـــــــة:

وفي الأخير، توصّلنا بعد هذه الرحلة في رحاب الخطاب الديني والتداولية إلى النتائج الآتية:

-إنّ الحديث النبوي يستجيب طواعية مع المقاربة التداولية ولا سيما نظرية الأفعال الكلامية ، لأنّ غاية الرسول صلى الله عليه وسلم هي حمل النفوس على ترجمة أقواله إلى سلوكات و أفعال إنجازية، ولهذا كثرت أفعال النصح والتوجيه والأمر والتحذير..، والأفعال المباشرة، وغير المباشرة. في الحديث النبوي الشريف.

-تميّزت التراكيب النحوية في الحديث النبوي الشريف بالاستقامة في اللفظ والجزالة في التركيب، وشرف المعنى، وبظواهر نحوية أكسبتها بُعدا تداوليا مثل الحذف، والتقديم والتأخير، والتكرار...

- لقد تعدّدت الأساليب البلاغية في الخطاب النبوي ، وذلك بالتنوّع بين الأسلوبين الخبري والإنشائي، تارة، أو خروج الإنشائي إلى أغراض بلاغية أخرى تُفهم من السياق، أو التعبير بالخبر عن الإنشاء، تلك الظاهرة التي أكسبت الخطاب الديني حمولة من القيم التداولية كأسلوب الاستفهام، والنداء، وخروج الخبر عن الغرض الذي وضع له.

- تعدّد استخدام الصور البيانية في الخطاب النبوي ، وهذا ما جعله يعجّ بالقيم التداولية، ويأتي التركيب التشبيهي في مقدمة هذه الصور التي بها يحرص المتكلم

على تقديم المعنى واضحا عن طريق التصوير والإقناع الحسي. ثمّ التركيب الاستعاري الذي وظيفته التشخيص للمعنى وتجسيده في قالب محسوس، وتزداد قيمة الاستعارة التداولية في خروج اللفظ المستعمل عن المألوف على سبيل المجاز لا الحقيقة، وهو المعروف بالانزياح . أمّا الكناية، فهي من أكثر الألوان البيانية تعبيرا عن قيم تداولية، لأنّها تقوم على التلميح للمخاطب بواسطة اللغة لا التصريح، وكلّ هذه الألوان البيانية كان لها نصيب وافر في الحديث النبوي الشريف.

- لمّا كانت غاية الحديث النبوي هي ترغيب المسلمين على أفعال الخير للعمل بها ، وترهيبهم بأفعال الشر للابتعاد عنها، وحمل النفوس على ترجمة ما يقوله أو يسديه لهم من نصح إلى أفعال وسلوكات تظهر آثارها في واقع حياتهم، ومن هنا كان الحجاج من الأدوات التي استعان بها الرسول صلى الله عليه وسلم للإقناع في أحاديثه الشريفة عامة، وهذا الحديث النبوي خاصة. وإذا تقصّينا هذا الحديث النبوي الشريف لمسنا فيه كثيرا من الحجج اعتمد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم في ردّه على أسئلة الصحابي الجليل معاذ بن جبل- رضي الله عنه- ، وذلك بتوظيف أسلوبي التوكيد والقسم، واستحضار النص القرآني، والتكرار...

- يعدّ الحوار من أدوات التبليغ، وآلية من آليات الحجاج ، ويتجلى بُعده التداولي في كونه يتوخى ترجمة القرارات على أرض الواقع. و الحوار هو من الأدوات التي كان لها حضورا في الخطاب النبوي، استعان به الرسول صلى الله عليه وسلم لتوضيح السبيل إلى بلوغ الجنة، وتفسير تعاليم الإسلام، وشرحها بطريقة مبسطة ليفهمها الجميع، وإقناع المتلقي،

- يتميّز أسلوب الخطاب النبوي بصفة الإعجاز من خلال إيجاز تعبيره، وقدرته على الوصول إلى مكامن النفس، و نفوذه إلى القلوب المؤمنة كالماء العذب.

الهوامـــــش:

(1) نُشر هذا المقال في مجلة الصوتيات، جامعة البليدة 2، العدد 18.

(2) نشر الأميريكيان ستيفن ناب ووالتر مايكلز مقالة عنوانها (ضد النظرية) سنة 1982م، وصفا فيها النظرية بأنّها محاولة للسيطرة على تفاسير نصوص مختلفة بالاستعانة بنظرية عامة للتفسير).

(3) وليام جيمس، البراجماتية، تر: محمد علي العريان، تقديم محمد زكي نجيب محمود، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2008م، ص: 77.

(4) ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط3، 2002م، ص: 167.

(5) عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2010م، يقول مرتاض: (وإنّا بكل أسف لا ندري 391 من اصصطنع من اللغويين العرب المعاصرين هذا المفهوم لأوّل مرة في اللغة العربية...ولا كيف اهتدى السبيل إلى إطلاق هذا الاستعمال الذي يدل من الوجهة المعجمية على التعاور على الشيء وأخذه بالدول، بحيث يقع التداول عليه: مرة يأخذه هذا من ذاك، ومرة يأخذه ذاك من هذا....».

(6) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد الكلام، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000م، ص: 28. يقول: (وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح التداوليات مقابلا للمصطلح الغربي براغماتيقا، لأنه يوفي المطلوب حقّه ، باعتبار دلالته على معنيي الاستعمال والتفاعل معا... كما أنّنا وضعنا مصطلح المجال التداولي...».

(7) مسعود صحراوي، التداولية عند العلمـــاء العرب، بيروت، دار الطليعة، ط1، 2005م، ص: 16.

(8) وليام جيمـــــس، البراجماتية، تر: محمد علي العريان، تقديم محمد زكي نجيب محمود، ص: 65.

(9) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية،2002م، ص-ص: 12- 13.

(10) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د.ط، د.ت، ص: 3 (مقدمة المؤلف).

(11) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحـــــث اللغوي المعاصر، ص: 15.

(12) المرجع نفســـه، ص-ص: 17 - 24.

(13) المرجع نفســـه، ص-ص: 26 - 32.

(14) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ص-ص35-32.

(15) المرجع نفسه، ص-ص: 40 - 41.

(16) المرجع نفســـــــــــه، ص: 43.

(17) المرجع نفســـــــــــه، ص: 44.

(18) المرجع نفســــــــــــه، ص-ص: 45 - 46.
(19) العيد جلولي، نظرية الحدث الكلامي من أوستين إلى سيرل، مجلة الأثر، العدد الخاص بالملتقى الدولي الرابع لتحليل الخطاب، ص: 49.
(20) محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 44.
(21) المرجع نفســــــــــه، ص: 50.
(22) جيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 1992م، ص: 50.
(23) محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 54.
(24) ابن رجب، الأربعون النووية وتتمتها، مكتبة الاقتصاد، مكة، د.ط، د.ت، ص ص: 20 - 21. (الحديث التاسع والعشرون).
*هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه من رواية معمر عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن معاذ بن جبل ، وقال الترمذي : حسن صحيح .
(25) سيبويه، الكتاب، ج1، 1981م، ص ص: 25 - 26.
(26) مصطفى صادق الرافعي، إعجـــــاز القرآن والبلاغة النبوية، بيروت، المكتبة العصرية، د.ط، 2001م، ص: 227.
(27) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح. أبو فهر محمود محمد شاكر، القاهرة ، مطبعة المدني،ط3 ، 1992م، ص: 106.
(28) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: أبو فهر محمود محمد شاكر. القاهرة. مكتبة الخانجي ، ط2. 1989م، ص: 106.
(29) المقصود بالتكرار هنا ليس التكرار المشين أو ما يطلق عليه الإطناب إنما التكرار المفيد الذي غرضه التوكيد والإفهام، فقد كان العرب يذمون الإطناب، ويمجدون الإيجاز.
(30) بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرح ونشر أحمد صفر، بيروت، المكتبة العلمية، د.ط، 1981م، ص: 5.
(31) صحيح الترمذي (2723)، أخرجه البخاري، حديث حسن صحيح.
(32) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مقاربة بين التداولية والشعر دراسة تطبيقية، الجزائر، بيت الحكمة، العلمة، ط1، 2012م، ص: 61.
(33) المرجع نفســــــــــــــــــه، ص: 61.
(34) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجـــــاز، تح.محمود شاكر، القاهرة، طبعة الخانجي، ص: 66.
(35) طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثـــــــر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998 م، ص: 226.
(36) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصـــــــول الشريعة، ج3، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ص: 53.